بحوث ودراسات

ثنائيات في القرآن: دراسة في الخصائص المنهجية وجوانب التكامل والتقابل

محمد علا*

الملخص

تنطلق هذه الدراسة من حقيقة كلية مرجعية في الخلق والاجتماع، مفادها أنَّ الثنائية سُنَّة في الخلق والوجود وسنن الحياة، وتسعى الدراسة إلى تدبر القرآن الكريم، والنظر في منهجيته المعرفية المتكاملة من زاوية هذا النموذج المعرفي الذي يرتكز على الثنائية الحقيقية التي تقود إلى الرؤية التوحيدية الكلية، فكان الانطلاق من رصد الثنائيات المركزية في القرآن الكريم وتتبعها، ثم تحليل أهم الخصائص المنهجية التي تدل عليها، وأهمها: خصيصة التداخل، وخصيصة الوحدة البنائية والتكامل، وخصيصة التقابل البلاغي والجمالي.

الكلمات المفتاحية: الثنائية، الثنائيات، التكامل، التقابل، الوحدة البنائية، التقابل البلاغي.

Binarity in the Qur'an: A Study in the methodological characteristics and aspects of integration and juxtaposition

Abstract

This study stems from a holistic referential reality in creation and human society, i.e., that binarity is the pattern of creation, existence and life. The study contemplates on the Holy Quran, and investigates its integrated epistemology and methodology. This epistemological model is based on the binary reality that leads to a holistic monotheistic perspective.

The point of departure in the study is the identification of the central binaries in the Holy Quran and the analysis of the most important methodological characteristics, such as: overlapping, structural unity and integration, and rhetorical and aesthetic juxtaposition.

Key words: Binary, Integration, Structural Unity, Rhetorical juxtaposition

---

* دكتوراه في الحوار الديني والثقافي في الحضارة الإسلامية، جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال ٢٠١٦م، مركز دراسات المعرفة والحضارة– المغرب. البريد الإلكتروني: mhm.alla@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٥/٨/٦م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٦/٥/٢م.

مقدمة:

مبدأ "الثنائية في الوجود" حقيقة اتَّفق حولها الدين والعلم والفلسفة، وتجلَّت في الكون وسنن الحياة. فحقيقة الزوجية في بناء الكون –مثلاً– أمر ثابت للعيان، وهي مظهر من مظاهر الإعجاز في الخلق، وأساس للتوازن في صنع الله، ودليل على وحدانية الله، وعلى التعددية والتنوع والاختلاف في خلقه، ومنبع التجديد والتجدُّد والاستمرار، وتأكيد لضعف المخلوق وحاجته إلى ما يُكمِّله ويُقوِّيه. وقد كان للمفسرين وقفات خاصة مع آيتين كريمتين تقرران صراحة بصيغة الشمول حقيقة الزوجية؛ الأُولى قوله ﷻ في سورة الذاريات: ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٤٩﴾ (الذاريات: ٤٩)، والثانية قوله تعالى في سورة يس: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ وَمِنۡ أَنفُسِهِمۡ وَمِمَّا لَا يَعۡلَمُونَ ٣٦﴾ (يس: ٣٦)، وقد أجمعوا أنَّ هاتين الآيتين أثبتتا المتضادات والمتقابلات وأزواجاً أخرى متكاملةً في الأنفس، وفي الآفاق.

وكل الأزواج والثنائيات الموجودة في الكون يتداخل بعضها في بعض في إطار علاقات تتخذ أشكالاً مختلفةً: العبودية والخضوع والاستسلام (ثنائية الخالق والمخلوق)، التكامل والجمال والتناسب (ثنائية الذكر والأنثى)، التسخير والإنعام (ثنائية الإنسان والطبيعة)، التوالي والتتابع والتوازن (ثنائية الليل والنهار، الأرض والسماء، الشمس والقمر...)، التفاعل والاحتكاك والالتقاء (السخونة والبرودة، الذكر والأنثى...)، التصادم والتكامل (الموجب والسالب)، التدافع والصراع (الحق والباطل، الفجور والتقوى، الخير والشر)، التعاون والتكافل والتآزر (الفقير والغني، الضعيف والقوي، الصغير والكبير...)، وكلها علاقات تدل على الغنى والتجدُّد الذي يطبع الكون والحياة.

تتأسَّس هذه الدراسة على منهجين متداخلين متكاملين، هما:

– المنهج الوصفي الاستقرائي القائم على تتبُّع ثنائيات القرآن واستقرائها في الوحي المسطور، وفي الكون المنظور (في الأنفس والآفاق)، وتصنيفها، وترتيبها، وإبراز العلاقات التي تجمعها.

– المنهج التحليلي التركيبي القائم على محاولة الاجتهاد، والنظر في وظيفة الثنائيات في النسق المعرفي القرآني، وتحليلها، واستنباط خصائصها المميزة وَفق رؤية منهجية قائمة على ردِّ الفروع إلى الأصول، والجزئيات إلى الكليات؛ أيْ وَفق تحليل يتوسَّم الاقتراب ما أمكن من الرؤية الكلية التي يُؤسِّس لها الوحي.

أولاً: ثنائيات مركزية في القرآن الكريم

إذا كان نظام الثنائية سُنَّة في الخلق والشرع، تجلَّى في المخلوقات، وفي مظاهر الكون وأحوال الإنسان النفسية والمادية، وكان القرآن الكريم مصدراً كلياً للمعرفة الكونية المطلقة بوصفه المعادل الموضوعي للكون؛ فإنَّه قد فصَّل في أنواع هذه الثنائيات، وبيَّن مظاهرها وتجلِّياتها، لارتباطها بقضايا وموضوعات مركزية، عالجها التصور القرآني بقصدية ومنهجية استجابت لحاجات الإنسان المعرفية والواقعية والغيبية، وكانت متناغمةً مع قوانين الكون، ومنسجمةً وسنن الحياة، بل إنَّ كثيراً من هذه الثنائيات تُعَدُّ أعمدةً أساسيةً في الثقافة الإسلامية، ومن أمثلتها: الدنيا والآخرة، والإيمان والكفر، والتوحيد والشرك، والفجور والتقوى، والخير والشر، والصلاح والفساد، والجنة والنار، والحياة والموت، والنور والظلام... وهي ثنائيات يمكن تقسيمها حسب طبيعتها وخصائصها وعلاقات الترابط بينها إلى أقسام عدَّة؛ فمنها الثنائيات الوجودية الكبرى (الخالق والمخلوق، الإنسان والطبيعة)، ومنها الثنائيات الأنفسية؛ أي المرتبطة بالإنسان في مختلف أحواله (اليسر والعسر، الضحك والبكاء، التعب والراحة، الغنى والفقر...)، ومنها الثنائيات الآفاقية المرتبطة بالآفاق وحركة الكون (السماء والأرض، الليل والنهار، الصيف والشتاء، الشمس والقمر، النور والظلام...)، ومنها الثنائيات السننية القيمية المتعلقة بالجانب القيمي والأخلاقي للإنسان؛ أي حسب نزوعاته واختياراته وميله إلى جانب دون آخر (العدل والظلم، الإيمان والكفر، الفجور والتقوى، الحق والباطل...)، ومن بينها ثنائيات مركزية ترتبط بالمقاصد الكبرى للدين، وبالغائية والقصدية من الوجود، تبني التصور السليم، وتؤسِّس للعقيدة الصحيحة، وتهدي للسلوك القويم.

ويتمحور القرآن الكريم حول رؤية كلية تمدُّ الإنسان بآليات منهجية ومعرفية لفهم قضايا وإشكالات مرتبطة بالوجود؛ مصدراً وغايةً ومصيراً، وهي إشكالات مركزية في مسيرة الحياة الإنسانية، مثَّلت الإجابات القرآنية عنها انفتاحاً على فضاءات رحبة تجلَّت فيها معاني التكريم، وحسن الاستخلاف، وحمل الأمانة.

وهذه الرؤية الكلية القرآنية هي بنية نسقية متكاملة ضمَّت أصولاً معرفيةً ومنهجيةً، وعناصر هذه البنية ولبناتها مترابطة متماسكة فيما بينها بمعادلات سننية ثابتة، تجلَّت في الوحي على هيئة قواعد وقوانين وأسباب ونتائج، وكثير منها جاء في صورة ثنائيات تتفاعل أطرافها بطرق مختلفة اتَّخذت عموماً منهجين رئيسين، هما: منهج التكامل، ومنهج التقابل.

١. منهج التكامل:

يُقصَد بمنهج التكامل التأسيس القرآني لرؤية تكاملية بين طرفي ثنائية مركزية تهدف إلى إيجاد توازن شرعي يجمع الطرفين معاً وَفق صيغ تراحمية تعاقدية مبنية على أوامر ونواهٍ وضوابط شرعية. ومن أهم هذه الثنائيات:

– **الثنائية الأولى؛ ثنائية الخالق والمخلوق:** تقوم العقيدة الإسلامية على ثنائية وجودية: **إله خالق** (مُنزَّه عن الإنسان والطبيعة والتاريخ)،[١] وعَالَم مخلوق من قِبله؛ أي ما سواه من عناصر الكون جميعاً، "هذه الثنائية أثبتتها الآية الأُولى التي نزلت من القرآن الكريم، وهي قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ (العلق: ١)، حيث انحاز الرب الخالق إلى جهة، وانحازت كل المخلوقات الكونية إلى جهة أخرى."[٢] يقول ابن حزم: "ليس في الوجود إلا الخالق وخلقه."[٣] والقرآن يؤكِّد أنَّ مصدر الوجود هو الخالق ﷻ

[١] المسيري، عبد الوهاب. **رحلتي الفكرية في البذور والجذور والثمر، سيرة غير ذاتية غير موضوعية**، القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٨٤.

[٢] النجار، عبد المجيد. **خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بحث في جدلية النص والعقل والواقع**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٤١.

[٣] ابن حزم، علي بن أحمد بن سعيد. **الفصل في الملل والنحل**، تحقيق: محمد إبراهيم نصر، وعبد الرحمن عميرة، بيروت: دار الجيل، د.ت، ج١، ص٧١.

الذي خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان خلال سلسلة مكوَّنة من التراب والطين والحمأ المسنون والصلصال والنفخ في الروح. ويندرج في إطار هذه الثنائية قضايا متنوعة، منها: قضية الخلق، والوحدانية، وبعثة الرسل، وإنزال الكتب، وتحقيق منهج الله وَفق رؤية توحيدية وتكريمية واستخلافية، ومراعاة سنن الله في الأنفس والآفاق، والثواب والعقاب.

ويؤكِّد القرآن أنَّ كمال المخلوق (أي الإنسان المستخلَف) لا يُستمَدُّ إلا من الخالق تعالى، فهو الموفِّق والمعين والهادي إلى سواء السبيل؛ فمَن كان مع الله كان الله معه، ومَن نسيه أوكله إلى نفسه.

– **الثنائية الثانية؛ ثنائية الإنسان والطبيعة:** خلق الله تعالى الإنسان والطبيعة، ولكنَّ الإنسان تفرَّد بعناية إلهية خاصَّة ميَّزته من باقي المخلوقات؛ فهو مخلوق مُكرَّم وهبه الله العقل، وأناط به أمانة التكليف، ومهمة إعمار الكون. أمَّا الطبيعة فهي فضاء الاستخلاف الحاضن للإنسان. ويتضح التكامل بين طرفي الثنائية في العلاقة النفعية بينهما، ولا شكَّ في أنَّ الخط المنطلق من الإنسان هو أكثر احتياجاً من الخط المنطلق من الطبيعة؛ فالطبيعة وُجِدت فضاءً مُسخَّراً للإنسان بالخيرات والبركات وأصناف النعم والأرزاق، لا يمكن أن يستغني عنها، ولن يستمر له عيش إلا بها، وحتى ما يقوم به الإنسان من رعاية للطبيعة بحفظ مواردها وإغنائها، فإنَّ حصاد هذا الفعل ومردوديته ستؤول إليه في العاقبة والنهاية؛ لأنَّه هو المستفيد والمتنعِّم بخيراتها.

– **الثنائية الثالثة؛ ثنائية الدنيا والآخرة:** يُقسِّم القرآن الكريم حياة البشر إلى مرحلتين: مرحلة دنيوية، ومرحلة أخروية. وقد بيَّن أوصاف الدارين؛ فالدنيا ذات عمر قصير ومتاع قليل، وهي دار غرور ولهو ولعب وزينة وتفاخر، دار إغواء وترف واستمتاع، وهي دار لاكتساب الحسنات والمعيشة الطيبة لِمن آمن وعمل صالحاً. أمَّا الآخرة فهي الحياة الحقيقية، وهي دار القرار التي تتفاوت فيها درجات الناس ومنازلهم، و"الاعتقاد في وجود الحياة الأخرى بعد الموت... ليس فقط من أركان الإيمان بالغيب، ومما يحتاج إلى إثبات واستدلال، بل هو أيضاً ضرورة أخلاقية؛ إذ في الآخرة تتم التفرقة بين الصالح

والطالح، والمحسن والمسيء، ومجازاة كل واحد بحسب عمله واستحقاقه."[٤] ومع أنَّ "الدين أطال الحديث عن الدار الآخرة، وبثَّ في النفوس الأشواق إلى نعيم الجنة كما بثَّ فيها المخاوف من عذاب النار، لكنَّ هذا الإسهاب في الوعد والوعيد هو لتهذيب الغرائز، وكبح جماحها، ومنع طغيان العاجلة على الآجلة، وإخراج المرء من القوقعة الأرضية التي يحتبس داخلها غالباً، وفتح بصيرته على آفاق أوسع وحياة أخلد."[٥] قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٧٧﴾ (القصص: ٧٧).

– **الثنائية الرابعة؛ ثنائية الذَّكر والأنثى**: تُعَدُّ هذه الثنائية أحد أبرز الأمثلة التي توضِّح حقيقة الزوجية في الأنفس والآفاق؛ فالذكر صنف، والأنثى صنف، والإنسان ذكر وأنثى، وفي كل صنف من الحيوان ذكر وأنثى، والنبات ذكر وأنثى. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ٤٥﴾ (النجم: ٤٥)، وقال ﷻ: ﴿وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ﴾ (آل عمران: ٣٦)، وقال أيضاً: ﴿فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣٩﴾ (القيامة: ٣٩).

والتكامل بينهما واضح جلي، وقد بيَّن القرآن بعض تجلياته. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ (الأعراف: ١٨٩)، وقال ﷻ: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١﴾ (الروم: ٢١). فالسكن والمودة والرحمة من تجليات التكامل في ثنائية الذكر والأنثى، ويشير أبو القاسم حاج حمد إلى أنَّ هذه الثنائية هي مماثلة تركيبية تؤدي أيضاً إلى ناتج طبيعي في حال تلاحق طرفيها بالماء "ضمن شرعة أخلاقية إرادية، أي بتطوير المبدأ الطبيعي الكوني نفسه وإحالته إلى مبدأ اجتماعي وأخلاقي؛ فالناتج عن الذكر والأنثى هو مولود يحظى بشرعية البنوة النفسية الكاملة، ومن هنا تؤسَّس الحياة الزوجية، وتحرم علاقات الزنا."[٦]

---

[٤] بلكا، إلياس. **الغيب والعقل: دراسة في حدود المعرفة البشرية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص١٢٥.

[٥] الغزالي، محمد. **علل وأدوية**، القاهرة: دار الشروق، د.ت، ص١٩٦.

[٦] حاج حمد، محمد أبو القاسم. **منهجية القرآن المعرفية**، مراجعة وتحقيق: محمد العاني، بيروت: دار الساقي، ط١، ٢٠١٣م، ص٨١.

– **الثنائية الخامسة؛ ثنائية الإيمان والعمل الصالح**: هذه الثنائية ليست متقابلة متضادة في معانيها الظاهرة؛ فالإيمان تصديق بالقلب وهو مطلوب، والعمل الصالح برهان ودليل، وهو أيضاً مطلوب، فهي ثنائية تكاملية يحذِّر القرآن من التفريق بين طرفيها.[٧] أمَّا التقابل المتعلق بهذه الثنائية فتفسِّره القاعدة الأصولية التي مفادها أنَّ "الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده"، فالأمر بالإيمان يتضمن النهي عن الكفر، والأمر بعمل الصالحات في داخله نهي عن اقتراف السيئات، كما النهي عن الزنا أمر بالعفة، والنهي عن الربا أمر بالكسب الحلال... ولا انتفاع بالصالحات إلا بترك السيئات؛ فالدخول في النور تلقائياً هو خروج من الظلمات.

والمتأمل في القرآن الكريم يجد ربطاً متواتراً بين ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وقد تكرَّر هذا في أكثر من سبعين موضعاً، مما يوضِّح أنَّ الإيمان إنما يكتمل بالعمل الصالح، وإلا لانتفت الحاجة إلى دوام الربط، ودلالة هذا الربط ومعناه هو ما ذكرناه من أنَّ الإيمان يكتمل بالعمل، ولو أنعم المسلمون النظر في هذه المسألة وتوصَّلوا إلى دلالتها ما وُجِد داعٍ لكثير من القضايا الجدلية التي كانت مثار منازعات حادَّة عن الإيمان، وعمَّا إذا كان يقتصر على التصديق، أو لا بدَّ له من عمل يؤكِّده، وعمَّا إذا كان يزيد أو ينقص إلى آخر ما يرد في كتب العقائد وعلم الكلام. والحقيقة أنَّه "لا إيمان بدون عمل صالح، ولا عمل صالح بلا إيمان، فالأول ضرب من الإرجاء والتعطيل والانسحاب، والثاني جبرية دهرية. وإنما جعل القرآن الإيمان مقدمة للعمل، ليكون هذا العمل صالحاً. فالإيمان... والبر والتقوى والعفو... روافد لتكوين الإنسان الصالح في نفسه، المصلح في مجتمعه."[٨]

---

[٧] نذكر هنا الصراع الكلامي الجدلي الذي فرَّق بين طرفي الثنائية، وبخاصَّة عند فرق معينة كالمرجئة التي ذهبت إلى أنَّه "لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة"؛ فالعمل بحسب مذهبهم ليس ركناً من أركان الإيمان. انظر:

– الدمشقي، الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز. **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، وشعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، د.ت، ج٢، ص٤٣٤.

[٨] شبار، سعيد. **الاجتهاد والتجديد في الفكر العربي والإسلامي المعاصر: دراسة في الأسس المرجعية والمنهجية**، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٧م، ص٢٠٩.

وإيرادنا لهذه الثنائية نابع من كونها ثنائيةً أساسيةً كبرى، فمنذ أن هبط آدم إلى الأرض وسلسلة الرسالات السماوية إلى خاتمتها (الإسلام) تؤكِّد ثنائية الإيمان والعمل الصالح؛ فهي العمود الفقري لمقصد هذه الرسالات، حيث إنَّ الإيمان كان ثابتاً مع أصل التوحيد. أمَّا العمل الصالح فقد كان مفهوماً عامّاً تعدَّدت أشكاله وألوانه، واختلفت باختلاف العلل والانحرافات التي كان يعانيها أقوام الأنبياء المرسلين،[٩] مما جعل صرخة كل نبي مُوجَّهةً بدايةً إلى إصلاح ذلك الانحراف، والعمل على تقويضه، وإيجاد البديل عنه بالعمل الصالح الذي يقابله.

٢. منهج التقابل:

نقصد به التأسيس القرآني لرؤية تقابلية بين طرفي ثنائية مركزية، تهدف إلى بناء توازن شرعي قائم على إبقاء مسافة بين طرفيها وَفق أوامر ونواهٍ وضوابط شرعية. ومن أهم هذه الثنائيات التقابلية المركزية في القرآن الكريم:

- **الثنائية الأولى؛ ثنائية التوحيد والشرك:** التوحيد هو الأصل الذي بُنيت عليه الملَّة الحنيفية، وهو المقصد الرئيس من إرسال الرسل وإنزال الكتب. وكانت دعوة كل نبي: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ (الأعراف: ٥٩)، وقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (الأعراف: ٦٥)، وقال ﷻ: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (الأعراف: ٧٣). وقد أفرد القرآن الكريم الكثير من آياته وسوره لبيان التوحيد والنهي عن ضده؛ أي الشرك، وفي هذا السياق يقرِّر الإمام ابن القيم -رحمه الله- أنَّ القرآن كله في التوحيد؛ لأنَّه: "إمَّا إخبار عن الله وأسمائه وصفاته، وهذا

[٩] جميع الأنبياء والرسل دعوا إلى عقيدة التوحيد، وما يرتبط بها من توضيح لمسائل الخلق والبعث والنشور والحساب والجنة والنار. أمَّا بالنسبة إلى إصلاحهم أوضاع مجتمعهم، فكان لكل نبي صرخة خاصَّة تنبِّه أقوامهم لعاقبة الانحراف والعمل الفاسد الذي هم عليه؛ فصرخة شعيب كانت اقتصاديةً ليكف قومه عن السرقة في المكيال، وصرخة موسى كانت سياسيةً ليكف النظام السياسي عن الاستبداد، وصرخة لوط كانت أخلاقيةً ليكف قومه عن ممارسة أبشع الرذائل (اللواط)... وعموماً، فقد كان لدعوة الأنبياء جناحان: جناح الإيمان الثابت، وجناح العمل الصالح المتغيِّر تبعاً لنوعية الفساد المنتشر.

هو التوحيد العلمي الذي هو توحيد الربوبية، وإمَّا أمر بعبادة الله وحده لا شريك له ونهي عن الشرك، وهذا هو التوحيد العملي الطلبي وهو توحيد الألوهية، وإمَّا أمر بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ونهي عن معصية الله ومعصية رسوله ﷺ، وهذا من حقوق التوحيد ومكملاته، وإمَّا إخبار عمَّا أعدَّ الله للموحِّدين من النعيم والفوز والنجاة والنصر في الدنيا والآخرة، أو إخبار عمَّا حلَّ بالمشركين من النكال في الدنيا وما أعدَّ لهم في الآخرة من العذاب الدائم والخلود المؤبَّد في جهنم، وهذا فيمَن حقَّق التوحيد، وفيمَن أهمل التوحيد."[١٠] إذن، فالقرآن كله يدور على التوحيد، وقد مكث النبي ﷺ في مكة ثلاث عشرة سنة يبني التصور الصحيح، ويؤسِّس الاعتقاد السليم، فكانت مرحلة الدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك أطول من مرحلة بناء الدولة ووضع نظمها.

– **الثنائية الثانية؛ ثنائية الإيمان والكفر**: يقابل الكفرُ الإيمانَ في أكثر الآيات القرآنية، وقد ورد بمعانٍ أُخر، منها كفر النعمة. فكما أنَّ الإيمان شعب ومراتب، فللكفر أنواع ودرجات. والكفر بالمعنى الاصطلاحي قرين الجحود والشرك والإنكار والمعاندة والنفاق، والإيمان قرين الإسلام والاستسلام والخضوع والانقياد، وكل ذلك له تجلِّيات اعتقادية وأُخرى سلوكية عملية. وقد رتَّب الشرع على الكفر ويلات مثلما رتَّب على الإيمان خيرات وبركات، وجعل الاختيار والحرية والمسؤولية وعدم الإكراه أسساً ثابتةً للعقائد وتقرير الأحكام. قال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

– **الثنائية الثالثة؛ ثنائية الخير والشر**: الخير مفهوم واسع يشمل كل النعم والمنافع والمصالح والخيرات والبركات، والشر –في المقابل– يجمع كل النقم والأضرار والموبقات. وفي القرآن الكريم نجد الخير قرين الطاعة والإيمان والتوحيد والنعيم، ونجد الشر قرين الكفر والمعصية والجحيم. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ (الزلزلة: ٧–٨). يقول العز بن عبد السلام: "فالخير كله في الطاعات، والشر في المخالفات، ولذلك جاء القرآن بالحثِّ على الطاعات؛ دِقِّها وجِلِّها، قليلها

[١٠] ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **مدارج السالكين**، ضبط وتحقيق: رضوان جامع رضوان، القاهرة: مؤسسة المختار، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٣، ص٤٦٨.

وكثيرها، جليلها وحقيرها، والزجر عن المخالفات؛ دِقِّها وجِلِّها، قليلها وكثيرها، جليلها وحقيرها."[١١] وطرق التعبير عن الخير في القرآن الكريم كثيرة متنوعة، كما أنَّ التعبير عن مسالك الشر كثيرة ومتنوعة، من ذلك: "قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٩٠﴾ (النحل: ٩٠)، قال الحسن: لم تترك هذه الآية خيراً إلا أمرت به، ولا شرّاً إلا نهت عنه."[١٢]

– **الثنائية الرابعة؛ ثنائية الحق والباطل:** لهذه الثنائية حضور بارز في القرآن الكريم؛ فقد جمع "الحق" في القرآن معاني عظيمة ودلالات كلية، منها: أنَّ الحق هو الله سبحانه، وأنَّه بمعنى القرآن الكريم، ومعنى الإسلام، ومعنى العدل، ومعنى التوحيد، ومعنى الصدق، ومعنى وجوب العذاب على الكافرين، وغير ذلك. ومن معاني الباطل في القرآن الكريم: الشيطان، والشرك، والعمل غير المشروع، ومقابل الحق. قال تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤٢﴾ (البقرة: ٤٢)، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ (الحج: ٦٢).

– **الثنائية الخامسة؛ ثنائية الفجور والتقوى:** قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤﴾ (الانفطار: ١٣–١٤). وتتحقَّق التقوى بفعل الطاعات واجتناب المخالفات، ويتحقَّق الفجور بفعل المخالفات والبُعْد عن الطاعات. يقول العز بن عبد السلام: "فأمَّا الحثُّ على الطاعات: فبمدحها ومدح فاعليها، وبما وُعدوا عليها من الرضا والمثوبات، وبما رتِّب عليها في الدنيا من الكفاية والهداية، والتأهُّل للشهادة والرواية والولاية. وأمَّا الزجر عن المخالفات: فبذمِّها، وذمِّ فاعليها، وبما تُوعدوا عليها من السخط والعقوبات، وبردِّ الشهادات والروايات والانعزال عن الولايات."[١٣]

---

[١١] ابن عبد السلام، العز. **قواعد الأحكام في إصلاح الأنام**، دمشق: دار القلم، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج١، ص١١.

[١٢] ابن رجب (الحنبلي)، عبد الرحمن بن شهاب الدين بن أحمد. **جامع العلوم والحكم**، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ج١، ص٥٠.

[١٣] ابن عبد السلام، **قواعد الأحكام في إصلاح الأنام**، مرجع سابق، ج١، ص٢٧.

– **الثنائية السادسة؛ ثنائية الجنة والنار**: وهي النتيجة الحتمية التي أعدَّها الله لمنازل الناس في الآخرة. صحيح أنَّ منهم له نصيب من العذاب قبل دخول الجنة، بيد أنَّ النتيجة النهائية بعد استقرار الحساب هي وجود فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير. والجنة مراتب ودرجات كما أنَّ النار منازل ودركات، والشرع يحثُّ على إتيان الأعمال التي توجب دخول الجنان، والابتعاد عن الأعمال السيئة التي توجب دخول النيران، ومن متعلقات هذه الأعمال ثنائية الفساد والصلاح.

– **الثنائية السابعة؛ ثنائية الفساد والصلاح**: الصلاح والفساد مفهومان مركزيان في القرآن الكريم؛ فقد جعل الله الصلاح في القرآن مقابلاً للفساد، والمُصلِح مقابلاً للمُفسِد؛ فرداً كان أو جماعةً، بل يمكن القول إنَّ المقصد الأسمى من إرسال الرسل وإنزال الكتب هو تعزيز الصلاح ونصرة وأهله، وذمُّ الفساد وخذلان شيعته. والصلاح يتناول جميع الخير، والفساد يتناول جميع الشر، كما أنَّ سُنَّة التدافع قائمة على المواجهة بين طرفي هذه الثنائية بمستويات متباينة. أمَّا الآيات الدالة على ذلك فكثيرة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ ٱلۡمُفۡسِدَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِۚ﴾ (البقرة: ٢٢٠)، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ (الأعراف: ٥٦، ٨٥)، ﴿وَكَانَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ تِسۡعَةُ رَهۡطٖ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ٤٨﴾ (النمل: ٤٨)، ﴿ٱلَّذِينَ يُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا يُصۡلِحُونَ ١٥٢﴾ (الشعراء: ١٥٢)، ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ (الكهف: ١١٠)، ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ١٠﴾ (الحجرات: ١٠)، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٣﴾ (فصلت: ٣٣)، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ (هود: ٨٨)... إلى غيرها من الآيات التي تضمنت المفهومين بتصاريفهما المختلفة، متعلقينِ بالشؤون الفردية والجماعية ومصالح الأمة. ويلاحظ رجحان استعمال مشتقات "الصلاح" مقارنةً بمصطلح "الفساد" تناغماً مع منهجية القرآن القائمة على التأسيس والبناء والتعمير، وما يلزم ذلك من تقويم ورعاية وتصويب، ولن تظهر قيمة هذا الأمر إلا بعد معرفة آثار الهدم والفساد والتخريب.

وإذا استقرأنا مرادفات كلٍّ من الفساد والصلاح في القرآن الكريم فإنَّنا نجد أنفسنا أمام مفردات ومفاهيم غزيرة تشير إلى مستويات الصلاح المختلفة الواجب تحصيلها وتعزيزها، وكذا مفاهيم ومصطلحات أُخرى تشير إلى دركات الفساد المتعدِّدة، وطرقه وأساليبه الواجب تجنُّبها والحذر منها.

ففيما يخص مرادفات الفساد ومتعلقاته نجد: الضلال، والإثم، والمنكر، والجنوح، والخطيئة، والذنب، والفجور، والفسق، والكذب، والظلم، والهلاك، والسوء، والشر. أمَّا مرادفات الصلاح ومتعلقاته فتشمل: الإصلاح، والاستقامة، والهداية، والبِر، والحسن، والعمل الصالح، والتعمير، والاستخلاف، والتدافع، والرشد، والطهر، والطهارة، والهدى.

ولكلٍّ من هذه المفاهيم آثار جلية في بناء الحياة الإنسانية (الفردية، والجماعية) أو هدمها؛ فالإصلاح منهجية في التغيير له أسسه وأركانه، وله واقعه وفضاؤه؛ مكاناً وزماناً، وهو يكون أكثر نجاعةً حين يمثِّل عملية بناء من الداخل، مثل شريان الدم المتدفِّق في العروق، فيجب حينئذٍ الاحتراز من توغُّل الفيروسات والجراثيم حتى لا يتلوَّث هذا الدم النقي الصافي، أو يتكوَّن في الجسم ورم يُضعِف صحته وعافيته. أمَّا إذا كان الأساس ضعيفاً والبناء هشّاً فلن تنفعه "الإصلاحات" الترقيعية، بل لن تنفعه حتى عمليات استئصال أعضاء وزراعة أُخرى؛ لأنَّ ذلك ترقيع في نهاية المطاف. ويا للأسف، فإنَّ هذا التشبيه يصدق على عدد من الحركات الإصلاحية التي حاولت استيراد نماذج حضارية أُخرى من دون تأسيس بناء داخلي متين صُلْب قادر على "هضم" هذه التجارب وتذويبها في حركته الحضارية، عوض الذوبان والتيه في مسالكها ودروبها التي لا نهاية لها، مما ضيَّع على الأُمَّة جهوداً كثيرةً، وأطال من طريق البحث عن نقطة الانطلاق الصحيحة. فهذه الثنائية "الصلاح والفساد" حملت في ثناياها مجمل تاريخ البشرية المتأرجح بين مستويات طرفيها، وما بعثة الأنبياء والرسل إلا بحث عن الموازنة السننية القائمة على إحقاق الحق والصلاح، وإبطال الباطل والفساد.

ويمكن النظر إلى زمرة من الثنائيات السابقة من زاوية الترغيب والترهيب؛ إذ إنَّ مسالك القرآن في الترغيب والترهيب متنوعة، وهذه أهمها:

– مسلك الترغيب بالنعم الدنيوية؛ بخيرات السماء والأرض والرخاء والنعم الكثيرة المتباينة، التي تنتج تلقائياً من اتِّباع منهج الله القائم على التوحيد والإيمان والتقوى والصدق والهدى والصلاح والإصلاح. وفي المقابل نجد الترهيب بالعذاب الدنيوي عند الكفر به، ومخالفة أمره، واقتراف الآثام والطغيان في الأرض... وكلها مُسبِّبات لنزول الهلاك والعذاب وألوان من الابتلاءات.

– مسلك الترغيب بالنعم الأخروية؛ بالفوز بالجنة والنعيم المقيم والأمن والنظر إلى وجه الله الكريم، التي تأتي نتيجة تلقائية لاتباع منهج الله القائم على التوحيد والإيمان والتقوى والصدق والهدى والصلاح والإصلاح. وفي المقابل نجد الترهيب بالعذاب الأخروي عند الكفر به، ومخالفة أمره، واقتراف الآثام والطغيان في الأرض... وكلها مُسبِّبات للخوف الرهيب عند الحساب ودخول النيران.

هذه بعض النماذج من الثنائيات المتقابلة والثنائيات المتكاملة التي وردت في القرآن الكريم، ولا شكَّ في أنَّه يوجد غيرها بتعبيرات وسياقات خاصَّة، تدلُّنا أنَّ أسلوب البيان القرآني يتسم باتساق أصوله المعرفية والمنهجية، ومن أهمها التوليف بين المتنافرات بمنهجيات علمية وعملية مركَّبة، وهو ما أنتج "نسقاً إسلامياً خاصّاً في المعرفة، قوامه الوحدة والاتساق، وإمكانات التأليف بين المتباينات، وهذا على خلاف النسق السائد في المجال المعرفي المعاصر، الذي هو الوليد والميراث للتطور التاريخي الخاصِّ بالحضارة الأوروبية في أبعادها الفكرية والروحية والواقعية."[١٤]

ومركزية هذه الثنائيات في القرآن الكريم جعل منها قضايا كبرى تتبوَّأ مكانةً معتبرةً في المقاصد الكلية للوحي، ومن أهمها: التوحيد، والتكريم، والاستخلاف، والتعمير؛ أي إنَّ المحدِّدات المؤطِّرة لهذه المقاصد تستند بالضرورة إلى الثنائيات المركزية السابقة؛ فقد تأتي لبيان المنهج الواجب اتباعه في دار الاستخلاف، والأطراف المؤثِّرة في مسرح دار الابتلاء، ثم الجزاء المعدِّ دنيوياً وأُخروياً، وغير ذلك من القضايا التي جاءت في صياغات ثنائية واضحة.

[١٤] عبادي، أحمد. "بنائية القرآن المجيد دعامة من دعامات الختم"، **مجلة حراء**، عدد١٧، س٥، ٢٠٠٩م، ص٤٨.

ثانياً: الثنائيات والتأصيل لمقصد التوحيد

يُعَدُّ "التوحيد" مفهوماً مركزياً في منظومة الثقافة الإسلامية؛ فهو جوهر العقيدة، والقاسم المشترك الذي يجمع المختلفين في الفكر والنظر، بل هو محور الرؤية الكلية القرآنية، به تَحرَّر الإنسان من قيود الخرافات والأوهام، وسبح في المعاني العظيمة من وراء الخلق والأنام. "والتوحيد مدخل تفسيري ذو قابليات هائلة وقدرات متنوعة لتفسير آلاف الظاهرات النفسية والسلوكية والنظمية والمعرفية في مختلف المستويات، والتفسير الذي يقدِّمه القرآن المجيد يؤدي إلى الفهم العميق لتلك الظاهرات، ويمكِّن من صياغة الأسئلة المعرفية، وتعليم الإنسان طرق الإجابة عنها... ."[١٥] "فالتوحيد يمثِّل حجر الزاوية في تكوين وبناء الرؤية الكلية عن الكون والحياة والإنسان. والتوحيد يوضِّح حدود وأبعاد الدور الإنساني في الكون والحياة. وفي الوقت نفسه يحقِّق قدرة كبيرة على صياغة المفاهيم الضرورية لبناء فاعلية الإنسان، وتشكيل دافعية العمران والتسامي فيه، وإيجاد المنطلقات المعرفية والثقافية السليمة لدى الإنسان."[١٦] والتوحيد بهذا المعنى جزء يسير من معانٍ له؛ إذ إنَّ خيوط الرؤية التوحيدية وامتداداتها[١٧] تجلَّت في الخلق منذ نشأته، وتبلورت بالوعي مع خلق الإنسان، ورافقته في مسيرته، وكانت دواءه الشافي، وجوابه الكافي عن أسئلة الغايات والنهايات، وحدَّدت له معنى الحياة.

---

[١٥] العلواني، طه جابر. **معالم في المنهج القرآني**، القاهرة: دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ط١، ٢٠١٠م، ص٨٣.

[١٦] العلواني، طه جابر. **التوحيد والتزكية والعمران: محاولات في الكشف عن القيم والمقاصد القرآنية الحاكمة**، بيروت: دار الهادي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٦٥.

[١٧] يُعَدُّ كتاب **"التوحيد: مضامينه على الفكر والحياة"** لإسماعيل راجي الفاروقي من الكتب التي تستحق التنويه لأهميته؛ إذ عمل المؤلِّف على إبراز قيمة التوحيد بوصفه القيمة الكبرى في دين الإسلام، وأساس كل القيم الأُخرى، وبيان آثاره في النفس البشرية، والحياة الاجتماعية، والواقع الإنساني في أبعاده المعنوية والمادية، وفي أنظمة الحياة كلها. فالتوحيد هو جوهر الرسالات السماوية، ومنطلق الإصلاح ومضمونه، وهو مبدأ التاريخ، ومبدأ الغيب، ومبدأ الأخلاقيات، ومبدأ النظام الاجتماعي، ومبدأ العائلة، ومبدأ النظام السياسي، ومبدأ النظام الاقتصادي، ومبدأ النظام العالمي، ومبدأ الخصائص الجمالية. انظر:
– الفاروقي، إسماعيل. **التوحيد ومضامينه في الفكر والحياة**، ترجمة: السيد محمد السيد عمر، هيرندن–فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠١٦م.

والتوحيد هو الناظم الذي تتشكَّل منه الرؤية الكلية الإسلامية للوجود؛ واقعاً وحقيقةً وزماناً ومكاناً ومصيراً، وهي تتلخص في الركن الأول من الإسلام، وهو الشهادة التي يقر بموجبها الإنسان المسلم أنَّ الوجود يجمع بينه بوصفه فرداً وأُمَّةً، وبين آخر مطلق هو الخالق، وآخر نسبي هو المخلوقات كافةً، "بل إنَّ القرآن الكريم في معرض وصف العلاقة بين الله والإنسان يشير إلى الحوار الذي جرى قبل وجود عالم الدنيا بين الخالق والمخلوق بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾﴾ (الأعراف: ١٧٢). فالضمير (واو) في (قالوا) مرجعه إلى بني آدم كلهم من ذكر وأنثى، والجواب (بلى) تأييد على إقرارنا – منذ نشوء حقيقتنا التكوينية الأزلية – بتوحيد الله، ولا يزال الناس، من ذكر وأنثى، يتحسَّسون ذكرى تلك الشهادة، ويشعرون بها في أعماق نفوسهم، وخطاب الإسلام لتلك الفطرة الأزلية في محله، بعد أن لبَّت نداء الله بالإقرار والشهادة على توحيده سبحانه."[١٨] هذا العهد الذي تحدَّدت بموجبه العلاقة بين الله والإنسان تُكمِّله محدِّدات أخرى، مثل الائتمان: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ (الأحزاب: ٧٢)، وعلى أساسه تم الاستخلاف: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (البقرة: ٣٠-٣٣). وبعد الاستخلاف جاء دور تحديد المهمة، وعلى ذلك يتوقف الحساب والجزاء، فكان التكليف والابتلاء ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: ٢) في المقاصد الكلية الحاكمة.[١٩]

[١٨] نصر، حسين. **قلب الإسلام: قيم خالدة من أجل الإنسانية**، تعريب: داخل الحمداني، بيروت: مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات الحضارية: ٣٧، ط١، ٢٠٠٩م، ص١٤.

[١٩] العلواني، **التوحيد والتزكية والعمران**، مرجع سابق، ص٢٣ وما بعدها.

وما أصَّلنا له من القرآن الكريم لمبدأ الثنائية يؤكِّد مقصد التوحيد تصريحاً في مواطن، وتلميحاً في أُخرى، الذي غايته التوصُّل إلى معرفة الله وإفراده بالعبودية؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (الذاريات: ٤٩) لطيفة من اللطائف القرآنية التي تفضي إلى رؤية توحيدية شاملة تفيد بأنَّ هذه الثنائية دليل على وحدانية الله المُنزَّه عن كل المتقابلات، فقد أُوِّل قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) بحيث يعني: "تتعظون فيما خلق الله فتوحِّدوه."[٢٠] يقول القرطبي: "لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يقدر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء؛ إذ ﷻ وِتْر ليس كمثله شيء."[٢١] ويذهب الغزالي إلى "أنَّ الموجودات كلها متقابلة مزدوجة إلا الله؛ فإنَّه فرد لا مقابل له، بل هو الواحد الحق الخالق للأزواج كلها، فالقلب متجاذب بين الشيطان والملك."[٢٢] فكل ما أنشأ الله سبحانه من الأضداد والأشكال دالٌّ على وحدانيته وألوهيته، ومن ثَمَّ فهو المستوجب للطاعة والعبادة.

ومن الآيات التي استدل المفسرون على تأويلها بالثنائيات وَفق الرؤية التوحيدية قوله ﷻ: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾﴾ (الفجر: ٣). "سُئل أبو بكر الوراق عن الشَّفع والوتر، فقال: الشفع: تضاد أوصاف المخلوقين من العز والذل، والقدرة والعجز، والقوة والضعف، والعلم والجهل، والبصر والعمى. والوتر: انفراد صفات الله؛ عِز بلا ذل، وقدرة بلا عجز، وقوة بلا ضعف، وعلم بلا جهل، وحياة بلا ممات."[٢٣]

فالثنائية، من هذا المدخل، شاهد على ربوبية الله ووحدانيته، فهي تعريف بمخلوقات الله بحقائقها وأنواعها الدالة في مقصدها على وحدانية الله تعالى في أسمائه وصفاته وأفعاله، وكيف لا يكون ذلك وقد سبق شهادة مخلوقاته كلها بأنَّه وحده ربها وفاطرها ومليكها، وأنَّه وحده إلهها ومعبودها.

---

[٢٠] السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم. **بحر العلوم (تفسير السمرقندي)**، تحقيق: علي محمد معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، وزكرياء عبد المجيد النوتي، بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م، ج٣، ص٢٨٠.

[٢١] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج١٤، ص١٥-١٦.

[٢٢] الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي. **إحياء علوم الدين**، بيروت: دار المعرفة، د.ت، ج٢، ص١٣٨٨.

[٢٣] البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود. **معالم التنزيل (تفسير البغوي)**، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤١٢هـ، ج٨، ص٤١٦.

ثالثاً: بعض الخصائص المنهجية للثنائيات في القرآن الكريم

إنَّ تتبُّع الثنائيات الواردة في القرآن الكريم مكَّننا من استقراء بعض خصائصها المميزة التي أهمها: خصيصة التداخل، وخصيصة الوحدة النسقية والتكامل، وخصيصة التقابل البلاغي والجمالي.

١. خصيصة التداخل:

يدل الأصل اللغوي لكلمة "التداخل" على معنى واحد، هو: إدخال شيء في شيء؛ فالدخلة في اللون: "تخليط من ألوان في لون،"[٢٤] والدِّخال: "مداخلة المفاصل بعضها في بعض،"[٢٥] والدُّخلَلُون: "الحشوة الذين يدخلون في قوم ليسوا منهم،"[٢٦] والدُّخَّل من الكلأ: "ما دخل في أغصان الشجر ومنعه التفافه أن يرعى."[٢٧]

وتدل تعريفات "التداخل" على انضمام الشيء بعضه إلى بعض، واجتماعه به، ودخوله فيه؛ فقد ذكر التهانوي أنَّ من معاني التداخل: "أنْ ينفذ أحد الشيئين في الآخر ويلاقيه بأسره بحيث يصير جوهرهما واحداً."[٢٨]

والمقصود بالتداخل في السياق الذي نبحث فيه: محاولة إبراز العلاقات التضمنية والتسلسلية التي تجمع بين الثنائيات في القرآن الكريم، باندراج بعضها في بعض، ودلالة بعضها على بعضها الآخر، أو اشتراكها في خصائص معينة، في هيئة مباني محكمة

[٢٤] انظر:
- الأزهري، أبو منصور محمد. **تهذيب اللغة**، تحقيق: أحمد عبد العليم البرنوني، راجعه: علي محمد البجاوي، القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، د.ت. مادة: دخل.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. **لسان العرب**، بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٦٨م، مادة: دخل.

[٢٥] ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، مادة: دخل.

[٢٦] انظر:
- الأزهري، **تهذيب اللغة**، مرجع سابق، مادة: دخل.
- الجوهري، أبو نصر إسماعيل. **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، مادة: دخل.

[٢٧] المرجع السابق.

[٢٨] التهانوي، محمد علي. **كشاف اصطلاحات الفنون**، تحقيق: رفيق العجم، وعلي دحروج، بيروت: مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ج٢، ص٢٨٣.

ومعاني مترابطة تُبرِز نسقاً متكاملاً فيما بينها. فالتداخل بهذا المعنى هو: "آلية تحليلية أو تفسيرية لظواهر معرفية."[٢٩] ويؤكِّد عبد الرحمن العضراوي "أنَّ التداخل المعرفي (في الوحي) خاضع في نسقيته لمعيار هندسي ثقيل يجده العقل السليم كُلّاً محكوماً بقواعد منطقية دقيقة قائمة على الاستدلال والبرهنة والمحاججة قصد الإقناع بوحدانية الله تعالى وربوبيته واكتمال برنامج الاستخلاف الإنساني في الكون، فكانت كل المعارف القرآنية متداخلة لخدمة هذا المقصد العالي."[٣٠]

يُذكَر أنَّ مختلف الثنائيات التي يزخر بها القرآن الكريم (الثنائيات الآفاقية، والثنائيات الأنفسية، والثنائيات الأخروية...) تمثِّل في مجملها بنية متداخلة وسلسلة مترابطة من العلاقات التفاعلية التي تجمع بين أطرافها، بل قد نجد ثنائية كبرى تشكِّل إطاراً جامعاً لثنائيات فرعية عديدة، توضِّحها وتنفتح بها على معانٍ جديدة تحمل تجلِّيات توحيدية وتكريمية وعمرانية واستخلافية، وغالباً ما تكون هذه الثنائية الكبرى حقيقة كلية، أو قاعدة عامَّة قدَّرها الخالق تعالى في الوجود، ثم تأتي معادلات ثنائية أُخرى تنفتح بها على معانٍ وتفسيرات جديدة.

فإذا أخذنا مثلاً ثنائية الجنة والنار، وهي حقيقة دينية كبرى لها حضور مركزي في القرآن الكريم، بل إنها النهاية الحتمية للوجود البشري، نجدها وردت بصيغ ثنائية أخرى تزيدها إيضاحاً وجلاءً، بتسميات عدَّة ومفردات متنوعة، مثل: النعيم والجحيم، والأمن والخوف، والفلاح والخسران، والسعادة والشقاوة، والرضا والغضب، والرحمة والقسوة، والثواب والعقاب؛ إذ كل ثنائية تشير إلى جانب من جوانب حقيقة ثنائية الجنة والنار. قال تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ (المؤمنون: ١٠٢-١٠٣)، وقال سبحانه:

[٢٩] همام، محمد. **التداخل المعرفي: دراسة في المفهوم**، ضمن: **التكامل المعرفي: أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية**، تحرير: رائد جميل عكاشة، فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٥٦.

[٣٠] العضراوي، عبد الرحمن. **آليات التداخل المعرفي وتجديد الباراديغم المنهجي والتنزيلي في العلوم الإسلامية**، ضمن: **العلوم الإسلامية؛ أزمة منهج أم أزمة تنزيل؟**، أعمال الندوة العلمية الدولية التي نظَّمتها الرابطة المحمدية للعلماء يومي ١٣-١٤ ربيع الثاني ١٤٣١هـ، الموافق ٣٠-٣١ ماي ٢٠١٠م، الدار البيضاء: دار أبي رقراق للطباعة والنشر، ط١، ٢٠١١م، (سلسلة ندوات علمية: ٣)، ص٢٧١.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ (هود: ١٠٦-١٠٨). فكثيراً ما يربط القرآن الجنة بالأمن والفلاح والسعادة والنعيم والخيرات والبركات، ويربط النار بالعذاب والجحيم والنكال والخسران والخوف والشقاوة وغيرها من الأوصاف الذميمة.

وفيما يخص الدنيا والآخرة يذكر القرآن الكريم: الأُولى والآخرة، والعاجلة والآخرة، والغيب والشهادة، واصفاً الدنيا بالعجلة وسرعة انقضاء مدتها وقرب زوالها وانتمائها إلى عالَم الشهادة، وواصفاً الآخرة بديمومتها وبقائها واستمرارها وانتمائها إلى عالم الغيب. قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (القصص: ٧٠)، وقال سبحانه: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ﴿٤﴾﴾ (الضحى: ٤)، وقال ﷻ: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ (القيامة: ٢٠-٢١)، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى: ١٦-١٧).

ويرتبط بثنائية الإيمان والكفر الكثير من الثنائيات الأُخرى؛ فهماً وتصوراً واعتقاداً، وعملاً وسلوكاً، ومن هذه الثنائيات: الجنة والنار بياناً للمصير، والنور والظلام بياناً للحال والاعتقاد والعمل؛ فالنور كناية عن الإيمان والطاعة والخضوع ومراعاة حدود الله، والظلام كناية عن الكفر والمعصية والتجرُّؤ على حدود الله. قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾ (النساء: ١٣)، ومنه ثنائية التقوى والفجور بياناً لمنهج العمل. قال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ (ص: ٢٨)، وقال ﷻ: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (الأحزاب: ٤٣)؛ "أي من الكفر إلى الإيمان،"[٣١] ومن الجهالة إلى المعرفة. قال تعالى: ﴿* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

[٣١] العسكري، أبو هلال. **كتاب الصناعتين**، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧١هـ/١٩٥٢م، ص٣٠٧.

(الرعد: ١٩)، وقال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ (الزمر: ٩). ومما يرتبط بها العزة والذلة: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (المائدة: ٥٤)، والحياة والممات: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ (فاطر: ٢٢). "فسَّره ثعلب قال: الحي هو المسلم والميت هو الكافر. قال الزجَّاج: الأحياء المؤمنون، والأموات الكافرون. قال: ودليل ذلك قوله: ﴿أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾﴾ (النحل: ٢١)، ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (البقرة: ١٥٤)...، وقوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ (الأنعام: ١٢٢)، فجعل المهتدي حياً، وأنَّه حين كان على الضلالة كان ميتاً..."[٣٢] وقريب منه حين يأتي وصف الكفار أو قلوبهم بالموت والذلة والصغار والقساوة والانصراف والحمية والإنكار، وبالختم والطبع والضيق والمرض...، ووصف المؤمن بالحياة والعزة واللين والرقة والأمن...، وفي مواضع أُخرى ببيان النتيجة والعاقبة التي يستحقها كل طرف: التيسير والتوفيق والسعادة والنعيم والجنة...، أو الضنك والشقاوة والتعسير والنار.

وخلاصة القول إنَّ القضايا الكبرى التي عالجتها الرؤية القرآنية هي ثنائيات محكمة تشكِّل سلسلة مترابطة من الأسباب والمسبِّبات والأهداف والغايات والنتائج، وقد جاءت صياغاتها في عبارات متنوعة وأساليب شتى، وكلها تأكيد لحقيقة كلية واحدة هدفها تحقيق الاستخلاف في الأرض وَفق رؤية قرآنية كونية إنسانية، وهي تؤكِّد وحدة نسقية القرآن في جميع الموضوعات التي يطرحها للتأمل والتفكير والتطبيق والتنفيذ.

٢. خصيصة الوحدة النسقية والتكامل:

النسقية من النسق، والنسق من كل شيء: ما كان على طريق نظام واحد، وقد نسَّقته تنسيقاً، ويخفَّف: نسَق الشيء ينسُقُه نسْقاً. ونسَّقه: نظَّمه على السواء. وثَغْر

[٣٢] ابن منظور، **لسان العرب**، مرجع سابق، ج١٤، ص٢١١- ٢٢٢.

نسقٌ إذا كانت الأسنان مستوية. ونسقُ الأسنان: انتظامها في النِّبتة وحسن تركيبها. والتنسيق: التنظيم. والنَّسق: ما جاء من الكلام على نظام واحد.[٣٣]

إنَّ الوحدة والنسقية بين الثنائيات في القرآن الكريم هي جزء من الوحدة البنائية لهذا الكتاب المحكم؛ فالقرآن كله يمثِّل وحدة بنائية موضوعية متكاملة متجانسة غير قابلة للتجزيء ولا التقسيم، فهو لا يعالج جوانب ويهمل أُخرى، ولا تُجزَّأ أحكامه بمعزل عن سياقاتها، فهو بناء محكم واحد، ونظام متفرِّد واحد، تسري فيه كله روح واحدة، مجلِّيةً بذلك "خاصيته الكونية بوصفه معادلاً للوجود الكوني كله وحركته وما فيها من متغيرات مكانية وزمانية تنعكس على المجتمعات والأبنية الحضارية وتحمل الدفع المستقبلي المتجدِّد دوماً."[٣٤]

فالقرآن "يتميز "بوحدة بنائية"[٣٥] في كل آياته وفي سوره كافة، وهذه الوحدة تجعل من المحال أن يقع في القرآن تضارب أو اختلاف أو نسخ أو تعارض، وأنَّ كلماته، بل وحروفه لا يمكن أن تكون ميداناً للتأويلات الشاذَّة المتضاربة إذا تُلي حق تلاوته، فمفرداته منضبطة في دلالتها انضباط النجوم في مواقعها من السماء؛ لأنَّها مصطلحات ومفاهيم إلهية، والفرق كبير بين اللغة التي يستخدمها وينطق بها الخالق البارئ المصور وبين اللغة التي يستخدمها البشر."[٣٦] ويمكن استنطاق هذه البنائية عن طريق التوسل بوسائل منهجية متعدِّدة؛ منها وسيلة "التقسيم الثنائي"، ولعل هذا يقترب في أحد جوانبه من مفهوم المنهجية Méthodologie حين عرَّفها أحمد عبادي بأنَّها: "عبارة عن إطار مرجعي جامع لمجموعة آليات استنطاقية بحثية متواشجة ينتظمها ناظم موحَّد."[٣٧] ومن المهم "استيعاب أنَّ القرآن الكريم عندما يستعمل الكلمة العربية، فإنَّه يخرجها من موقع الكلمة البسيطة إلى موقع المفهوم الغني بدلالاته وآفاقه، بحيث ينفتح على جملة من المعاني

---

[٣٣] المرجع السابق، ج١٤، ص١٢٧، مادة: نسَق.

[٣٤] حاج حمد، **منهجية القرآن المعرفية**، مرجع سابق، ص٨١.

[٣٥] انظر:

– العلواني، طه جابر. **الوحدة البنائية للقرآن المجيد**، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

[٣٦] العلواني، **معالم في المنهج القرآني**، مرجع سابق، ص٨٦.

[٣٧] عبادي، **بنائية القرآن المجيد دعامة من دعامات الختم**، مرجع سابق، ص٤٦.

ما كانت ترد على الذهن قبل استعمال القرآن الكريم لها، ووضعها في نظمه وسياقه."[٣٨] وهذه المنهجية هي التي تمكِّننا من تجنُّب القراءات الانتقائية والتجزيئية للقرآن الكريم، حتى في تعاملنا مع المفردة الواحدة، وتنفتح على آفاق معرفية أخرى حين تُدرس في إطار ثنائيات مترابطة.

وتتخذ النسقية بين الثنائيات ووحدتها وتكاملها في القرآن الكريم خطين رئيسين:

الأول: الوحدة النسقية في كل ثنائية على حِدَة: فكل ثنائية في القرآن الكريم تمثِّل وحدة عضوية متكاملة، لها معنى ذاتي مميَّز لا يشاركها فيه سواها. وهذا واضح –مثلاً– في ثنائيات أسماء الله الحسنى التي تدل على معانٍ متقابلة متكاملة؛ فالنسقية بين هذه الثنائيات تقتضي اقتران كل اسم بما يقابله، بل لا يجوز شرعاً وصف الله بأحدها فقط، فلا يَكمُل معنى "الأول" إلا إذا اقترن بـ"الآخر"، ولا "الظاهر" من دون "الباطن"، ولا "المقدم" من دون "المؤخر"، ولا "المحيي" من دون "المميت"...، فالوحدة النسقية بين هذه الثنائيات حاصلة باقتران كل طرف بما يقابله.

وتتضح هذه النسقية أيضاً بين القطع المتجاورة في القرآن الكريم، التي تأتي في مفردات أو صيغ متقابلة مرتبطة بسياقاتها الموضوعية، تتَّسق فيها المعاني كما تتَّسق الحجرات في البنيان، "بل إنَّها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضوعي من أنفسهما، كما يلتقي العظمان عند المفصل، ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائج تحيط بها عن كثب، كما يشتبك العضوان بالشرايين والعروق والأعصاب... كما يأخذ الجسم قواماً واحداً ويتعاون بجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية."[٣٩] ويمكن القول إنَّ "كل عنصر من عالم معنى القرآن المتعدِّد يمثِّل نسقاً في ذاته، ويحتاج فهمه لمجموعة من القواعد التفسيرية والاستنباطية. وهذا ما أعطى لمظهر التناسب النظمي للقرآن الكريم قوة معرفية ومنهجية

[٣٨] المنتار، محمد. "خصوصية النسق المفهومي القرآني"، **مجلة الإحياء**، العدد ٢٧، صفر ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص٩٥.
[٣٩] دراز، عبد الله. **النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن**، الدوحة: دار الثقافة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص١٥٥.

لاستيضاح أسباب ترابطات تلك العناصر العلمية والمعرفية وعللها اللازمة للحديث عن مفهوم المعرفة وتداخلها وتكاملها في القرآن."[٤٠]

فالتضاد في الثنائيات القرآنية تعبير عن نسق متكامل، وهو مقصود بين أطرافها، حيث ينبغي أن يبقى التباعد بينهما حاصلاً، ولا معنى لتفكيك هذه الأطراف؛ "لأنَّ معارضة كلٍّ منها لما يقابله أقوى من أن يفكَّك بأيِّ وجه من الوجوه."[٤١]

الثاني: الوحدة والنسقية والتكامل بين جميع ثنائيات القرآن الكريم: فالنوع الأول يدرس الثنائية من منطلق وحدتها البنائية ومعناها الذاتي، وهذا النوع ينفتح بها على المعاني المتوافقة والمتشاركة مع باقي الثنائيات الأخرى، "فالمعرفة القرآنية مركَّبة على بعضها في وحدة عضوية منهجية، إذا انتقص منها شيء أو حُرِّف معناه كان الانتقاص في الكل."[٤٢] والثنائيات في القرآن الكريم ليست مجرد عبارات في جمل، بل هي "آيات كالشمس والقمر وسائر الآيات الإلهية الأخرى. وتطوي هذه الآيات في جوانحها ما تطويه من الهداية والنور والمعاني والإجابات التي تتكشف عبر العصور بتكشف وظهور حاجات الأمم والعصور وأسئلة ومسائل الحياة وأزماتها."[٤٣] وقد تتجلَّى الوحدة البنائية للثنائية في إطار وحدة عقدية، أو وحدة تشريعية، أو وحدة أخلاقية.

فالله ﷻ ميَّز في القرآن الكريم الخالق من المخلوق، وفي المخلوق ميَّز الإنسان من الطبيعة؛ تكريماً وتشريفاً للإنسان، واستخلافاً وتعميراً للطبيعة. وخلق الإنسان من مادة وروح، وجعله ذكراً وأنثى، وفضَّله على سائر المخلوقات، ووهبه العقل والهوى، يخطئ ويصيب، وخلق له المَلَكَ والشيطان. "فإذا كانت النَّوْبَة للقلب والعقل والملك فهناك السرور والنعيم واللذة والبهجة والفرح وقرة العين وطيب الحياة وانشراح الصدر والفوز

---

[٤٠] العضراوي، **آليات التداخل المعرفي وتجديد الباراديغم المنهجي والتنزيلي في العلوم الإسلامية**، مرجع سابق، ص٢٦٩.

[٤١] خاقاني، محمد. **أمر بين أمرين: ثنائيات الإنسان والكون بمنطق التأويل والتفسير**، بيروت: دار الهادي، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٨.

[٤٢] حاج حمد، **منهجية القرآن المعرفية**، مرجع سابق، ص١٧٥.

[٤٣] العلواني، طه جابر. "الوحدة البنائية للقرآن المجيد (ملخص)"، **مجلة ثقافتنا للدراسات والأبحاث**، عدد٢٤، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ص٢٤.

بالغنائم، وإذا كانت النَّوْبَة للنفس والهوى والشيطان فهناك الغموم والهموم والأحزان وأنواع المكاره وضيق الصدر وحبس المَلَك."[٤٤] وابتلاه باليسر والعسر؛ بالنعمة والبلاء، وجعل البلاء خيراً وشراً، وجعل مسلكه في الدنيا اجتلاب المصالح ودفع المفاسد... وقسَّم الكون إلى عالَمينِ: شهادة وغيب، والناس إلى: مصدِّق ومكذِّب؛ مؤمن وكافر، ووهب الإنسان حياتين: دنيا وآخرة؛ الأُولى دار عمل واختبار، وله نصيب منها، والثانية دار جزاء وثواب، وقد رغَّبه فيها، وجعل الآخرة خيراً من الأُولى، والنهايات أكمل من البدايات؛ فالعبد على جناح سفر، إمَّا إلى الجنة، وإمَّا إلى النار.

فالوجود مبني وَفق نسقية ثنائية محكمة، وهذه الثنائيات تجيب عن الأسئلة الكلية النهائية التي حيَّرت الإنسان، بل إنَّها تمثِّل عصب الثقافة الإسلامية لكل مَن أراد الخوض في تفاصيلها، والعيش في كنفها، وتحدِّد بوضوح أسس التصور الإسلامي للإنسان والحياة والموت والمصير التي قد تكون مثار تساؤل الكائن البشري (خالقه، طبيعته، غايته، علاقته بالكون، نهايته...).

٣. خصيصة التقابل البلاغي والجمالي:

يكثر في نظم القرآن الكريم توارد أسلوب التقابل[٤٥] الذي يُعَدُّ أحد أبرز أساليب نظم المعاني في علم البلاغة؛ إذ يضفي جمالية على الأسلوب، فيجعل منه أداةً فنيةً

[٤٤] ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **الفوائد**، تحقيق: أحمد محمود خطاب، المنصورة: مكتبة الإيمان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ص٦١.

[٤٥] للاستزادة، انظر:

- بازي، محمد. **تقابلات النصِّ وبلاغة الخطاب**، بيروت: الدار العربية للعلوم؛ الجزائر: منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠١٠م.
- العبيدي، عبد الكريم. "ظاهرة التقابل الدلالي في اللغة العربية"، **مجلة آداب المستنصرية**، ١٩٨٩م.
- الصفَّار، منال صلاح الدين. **التقابل الدلالي في القرآن الكريم**، بغداد: دار الشؤون الثقافية، ٢٠١٣م.
- القرعان، فايز عارف. **التقابل والتماثل في القرآن الكريم: دراسة أسلوبية**، عمَّان: جدارا للكتاب العالمي؛ إربد: عالم الكتب الحديث، ط١، ٢٠٠٦م.
- جابي، محمد الأمين. **التقابل في القرآن الكريم: دراسة تحليلية للآيات المتقابلة العناصر**، دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، ط١، ١٤٣٣هـ.
- الخضر، زكريا علي محمود. "أسلوب المقابلة في سورة الرحمن وأثره في المعنى"، **المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية**، مج٧، عدد١/ب، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص٦٩-٧٧.

للبيان، ويعطيه روعةً في المعنى، فيكون لها أثر بليغ في النفوس التي تجد ولعاً شديداً بهذا الأسلوب الذي يراعى فيه التناسب بين الألفاظ المتقابلة؛ لوضوح الدلالات ومطابقتها لمقتضى الحال، بإيراد معنى أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب، وما يزال الناس يتلمَّسون هذا الأسلوب في مخاطباتهم؛ لما فيه من اللذة والإثارة.

والتقابل في اللغة مِن: قابل الشيءُ الشيءَ، إذا واجهه وصار ماثلاً أمامه؛ ولـمَّا يضع المتكلم الكلمة إزاء أُخرى، والمعنى إزاء معنى آخر، تحصل المقابلة من جهة اللفظ تارةً، ومن جهة المعنى تارةً أُخرى.[٤٦]

ومما يستفاد من كلام البلاغيين بخصوص المقابلة أنَّ التقابل في الكلام أكثر ما يجيء في الأضداد، يؤكِّد هذا بجلاء قول ابن رشيق: "وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد."[٤٧] وفي قول حازم القرطاجني: "وأنَّ أكثر ما يشعر به، ويفطن إليه من صوره مقابلة التضاد والتخالف."[٤٨]

والمتتبِّع لآيات القرآن الكريم، ولا سيما الربع الأخير منه[٤٩] يجد سوراً كاملةً يقوم بناؤها العام ومعانيها الجزئية وأساليبها على التقابل البلاغي، مثل سورة: الزمر، والذاريات، والطور، والرحمن، والواقعة، والحاقة، والقيامة، والإنسان، والغاشية، والشمس...، ويصعب حصر النماذج القرآنية التي عُرض فيها التقابل؛ نظراً إلى كثرتها

– الجنابي، أحمد نصيف. "ظاهرة التقابل في علم الدلالة"، **مجلة آداب المستنصرية**، بغداد، عدد١٠، ١٩٨٤م، ص١٣-٣٠.

[٤٦] ابن النقيب، أبو عبد الله جمال الدين محمد بن سليمان البلخي المقدسي الحنفي.. **مقدمة تفسير ابن النقيب في علم البيان والمعاني والبديع وإعجاز القرآن**، تحقيق: زكرياء سعيد علي، القاهرة: مكتبة الخانجي، ط١، ١٩٩٤م، ص٣٠٨.

[٤٧] ابن رشيق القيرواني، أبو علي. **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، د.م: دار الجيل، ط٤، ١٩٧٢م، ج٢، ص١٥.

[٤٨] القرطاجني، أبو الحسن حازم. **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨١م، ص٥٢.

[٤٩] توجد دراسة عن هذا الموضوع عنوانها: "**أسلوب التقابل في الربع الأخير من القرآن الكريم: دراسة أسلوبية**"، وهي مقدَّمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة العربية، من إعداد الباحث: عماري عز الدين، بجامعة الحاج لخضر باتنة بالجزائر. وقد أحصى صاحب البحث أكثر من ٤٨٣ تقابلاً بمختلف أنواعه في الربع الأخير من القرآن الكريم، ولا شكَّ في أنَّ الرقم سيتضاعف بالرجوع إلى ثلاثة الأرباع الأُخرى للذكر الحكيم.

وتنوعها وتداخلها الشديد؛ لأنَّ هذا التقابل لا يتَّجه أساساً إلى علاقة التضاد وحدها، وإنما قد تنضوي تحته مجموعة من العلاقات الأخرى، مثل: التماثل، والخلاف، والطباق. يضاف إلى ذلك أنَّ المشاهد المتقابلة في السور القرآنية قد تختلف طولاً وقصراً، وقد تتساوى فيما بينها حسب موضوع السورة والسياق الذي يعرضان فيه، وقد يكون هذا الاختلاف "ناشئاً عن مراعاة ما يناسب موضوع السورة والسياق الذي يُعرضان فيه. فقد يكون الجو السائد في السورة كلها جو الرضا والرحمة واللطف، فيقتضي ذلك أن يكون مشهد النعيم أطول، وقد يكون الجو العام في السورة جو الغضب والشدة، فيكون التطويل في مشهد العذاب أنسب له."[٥٠]

ومما قاله الزركشي عن أسلوب المقابلة: "أنَّ القرآن الكريم كله وارد عليها... حيث اتَّحدت من حيث تعدَّدت، واتَّصلت من حيث انفصلت، وأنَّها قد ترد على شكل المربع تارةً، وشكل المسدس أُخرى، وعلى شكل المثلث، إلى غير ذلك من التشكيلات العجيبة، والترتيبات البديعة."[٥١] ويُعَدُّ هذا الأسلوب مادةً علميةً دسمةً في أغلب التفاسير وكتب البلاغة، مثل: "روح المعاني" للألوسي، و"الكشاف" للزمخشري، و"في ظلال القرآن" لسيد قطب... وغيرها من المؤلَّفات التي تتناول أسلوب المقابلة بأسماء متعدِّدة مثل: التقابل، والتضاد، والطباق، والتناقض، والتخالف، مع توضيح مؤلِّفيها الفروق البيِّنة بين هذه المصطلحات.

ويمكن حصر أنواع التقابل وترتيبها في القرآن الكريم ضمن إطارين واسعين:

– الإطار الأول: يكون فيه التقابل بين لفظين، وهذا هو النمط البسيط، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ (غافر: ٦٨)، ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ

[٥٠] أبو زيد، أحمد. **التناسب البياني في القرآن: دراسة في النظم المعنوي والصوتي**، المملكة المغربية، جامعة محمد الخامس: منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة: رسائل وأطروحات رقم ١٩؛ الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ١٩٩٢م، ص١٥٧.

[٥١] الزركشي، بدر الدين محمد. **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت: دار المعرفة، ط٢، د.ت، ج٣، ص٤٥٨-٤٥٩.

هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ (الزمر: ٩)، ﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥﴾ (الانفطار: ٥)، ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣﴾ (الليل: ١٣)، ﴿فَلَا يَحۡزُنكَ قَوۡلُهُمۡۘ إِنَّا نَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٦﴾ (يس: ٧٦)، ﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ۝١٧﴾ (المرسلات: ١٦-١٧)، ﴿فَمِنۡهُم مُّهۡتَدٖۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٢٦﴾ (الحديد: ٢٦).

- الإطار الثاني: يكون فيه التقابل بين لفظ واحد وجملة، أو جملة وجملة أُخرى، أو بين مجموعة من الجمل من جهة ومجموعة من الجمل من جهة أُخرى، إنْ على الترتيب أو من دونه، وهذا هو النمط المركَّب، ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلۡمُسِيٓءُۚ قَلِيلٗا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ (غافر: ٥٨)، حيث وقع التقابل بين تركيب ولفظ مفرد، وقوله تعالى: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ۝٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ۝٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ۝٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١﴾ (عبس: ٣٨-٤١)، وفيه وقع التقابل بين جملة وجملة، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ۝١٤﴾ (محمد: ١٤)، ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ۝٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ ۝٣٧﴾ (الزمر: ٣٦-٣٧)، والنماذج على ذلك متضافرة في القرآن الكريم، علماً أنَّ الكثير من بُنى التقابل لا يمكن تحديدها إلا عن طريق السياق الذي ترد فيه. "ومن هنا فإنَّ ربط التقابلات المتضادة بالسياق، من الأهمية بمكان، ويظل العمل النقدي ناقصاً إذا تناول صاحبه تقابل التضاد دون ربطه بالسياق."[٥٢]

وقد يكون هذا السياق قبل ورود التقابل كما قد يرد بعده، وقد يتوسط التقابل سياقين مختلفين كما في قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تُدۡعَوۡنَ لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبۡخَلُۖ وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ

[٥٢] القرعان، **التقابل والتماثل في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص١٢٣.

قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم ﴿٣٨﴾﴾ (محمد: ٣٨)؛ فإن التقابل: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ ورد بين سياقين مختلفين.

ولهذا الأسلوب فوائد عدَّة، منها: إثبات الوحدانية لله سبحانه وتعالى، وأنَّه وحده المتفرِّد بالخلق والمستحق للعبادة، وفيه ردٌّ على المشركين الذين "كانوا يعبدون أحجاراً يصنعونها أو مخلوقات لله تعالى خلقها، وكانوا يعتقدون أن لها تأثيراً في الإيجاد، أو في الشر يُمنع، أو الخير يُجلب، فكانت المقابلة بين الذات العلية وبين ما ابتدعوا من عبادة الأوثان ينبوعاً للاستدلال على بطلان ما زعموا، ومن ذلك قوله تعالى﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ (النحل: ١٧-١٨)... فيه مقابلة بين المعبود بحق، وهو الله سبحانه وتعالى خالق السموات، وهم يؤمنون بأن الله وحده خالق السموات والأرض: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ (لقمان: ٢٥).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾﴾ (الرعد: ١٦).

ففي هذه الآية نجد المقابلة بين:

- مَن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضُرّاً، ومَن هو القهَّار القادر على كل شيء، وهو الواحد الأحد الذي لا يشبهه أحد، وكأنَّ المقابلة بين الأعمى والبصير، ويشمل الأعمى مَن لا يدرك الحقائق، والبصير مَن يدركها.

- وبين الظلمة التي تعتم النفس، والنور الذي يشرق به القلب.

- وبين مَن يخلق، ومَن لا يخلق.

فهذه المقابلات تصلح دليلاً مثبتاً في عدَّة دعاوى، ويكون في المتقابلات الحكم الفاصل الهادي المرشد."[٥٣]

[٥٣] أبو زهرة، محمد. **المعجزة الكبرى: القرآن**، القاهرة: دار الفكر العربي، د.ت، ص٣٧٩.

إنَّ هذا التقابل في القرآن الكريم بجميع أنواعه يُسهِّل وصول المعنى إلى المتلقي، فكأنما هو نوع من بيان القرآن للقرآن بأسلوب ميسَّر سهل واضح؛ لأنَّه "بضدها تتميَّز الأشياء." يقول ابن القيم: "ولولا خَلق القبيح لما عرفت فضيلة الجمال والحسن، ولولا خلق الظلام لما عرفت فضيلة النور، ولولا خلق أنواع البلاء لما عرف قدر العافية، ولولا الجحيم لما عرف قدر الجنة، ولو جعل الله النهار سرمداً لما عرف قدره، ولو جعل الليل سرمداً لما عرف قدره، وأعرف الناس بقدر النعمة مَن ذاق البلاء، وأعرفهم بقدر الغنى مَن قاسى مرائر الفقر والحاجة... فتبارك مَن له في خلقه وأمره الحِكم البوالغ، والنِّعم السوابغ."[٥٤]

ولا أدلَّ على ذلك -كما أشرنا سابقاً- إلا كثرة ميل المفسرين إلى الاستعانة بهذا المنهج الذي يتأسَّس على التقابل بأنواعه في بيانهم وشرحهم وتفسيرهم لكتاب الله تعالى، ولا سيما أنَّنا نجد في القرآن كثرة استعمال التضاد المعنوي على غيره من الأنواع، وهنا يتأكَّد لدينا "أهميته -أي التضاد المعنوي- في معالجة الموضوعات القرآنية المختلفة من جهة، وعن قدرة هذا التقابل على الكشف عن هذه الموضوعات، لأنَّ التقابل المعنوي يسمح بإعطاء حركة واسعة للمعنى داخل الآيات..."[٥٥] فضلاً عن الوضوح والجمال والقوة والتأثير في النفوس لما تجده فيها من راحة واطمئنان، وهذا ما ذهب إليه حازم القرطاجني حين رأى أنَّ "للنفوس في تقارن المتماثلات وتشافعها والمتشابهات والمتضادات وما جرى مجراها تحريكاً وإيلاعاً بالانفعال إلى مقتضى الكلام، لأنَّ تناصر الحسن في المستحسنين المتماثلين والمتشابهين أمكن من النفس موقعاً من سنوح ذلك لها في شيء واحد. وكذلك حال القبح. وما كان أملك للنفس وأمكن منها فهو أشد تحريكاً لها. وكذلك أيضاً مثول الحسن إزاء القبيح أو القبيح إزاء الحسن مما يزيد غبطةً بالواحد وتخلياً عن الآخر لتبيُّن حال الضد بالمثول إزاء ضده. فلذلك كان موقع المعاني المتقابلات من النفس عجيباً."[٥٦]

---

[٥٤] ابن القيم الجوزية، محمد بن أبي بكر. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، تحقيق: خالد عبد اللطيف السبع العلمي، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص٣٦٢.

[٥٥] القرعان، **التقابل والتماثل في القرآن الكريم**، مرجع سابق، ص٢٠٩.

[٥٦] القرطاجني، **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، مرجع سابق، ص٤٤-٤٥.

ومجموع الخصائص التي أشرنا إليها تمثِّل فيما بينها وحدة موضوعية متكاملة؛ فتداخل الثنائيات وتضمُّن بعضها لبعض هو تجلٍّ من تجلِّيات الوحدة النسقية والتكامل، وكل ذلك جاء في صياغات جمالية وبلاغية أصيلة في مبانيها، وبديعة في معانيها.

خاتمة:

لقد كانت ثنائيات الوحي (المقروء، والمنظور) شاهدةً على وحدانية الله المُنزَّه عن كل المتقابلات، والغني عن الشركاء، ولعل التكريم الإلهي للإنسان هو التجلِّي الأكبر للثنائيات الوجودية (ثنائية الخالق والمخلوق، وثنائية الإنسان والطبيعة)، وإنَّ مفهوم الاستخلاف يجمع في طيَّاته الثنائيات الوجودية والثنائيات الأنفسية والثنائيات الآفاقية والثنائيات القيمية ذات الطبيعة الاختيارية.

تؤكِّد هذه الدراسة أنَّ مختلف الموضوعات التي يعالجها الوحي تهدف إلى بناء منظومة تصورية متكاملة عن ثلاثة عناصر، هي: الله، والإنسان، والكون؛ فرسالة الخالق إلى المخلوق لم تنقطع مُذْ هبط آدم عليه السلام إلى الأرض، حيث ظل التواصلُ مستمراً ببعثة الأنبياء والرسل، تواصلٌ تحكمه ثلاثية: التكريم، والعبادة، والاستخلاف؛ التكريم الذي تفرَّد به الإنسان عن باقي المخلوقات، والعبادة التي أصلها التوحيد، والاستخلاف الذي هو رعاية وإعمار وإدارة وتسخير للكون.

وهنا تظهر أهمية الثنائيات الوجودية في التأطير وتوجيه تعاملنا مع الثنائيات الاختيارية. فإذا كانت الثنائيات الوجودية، وما يرتبط بها من نُظم وأحكام وقيم عليا، أساس التصور السليم والاعتقاد الصحيح لما تمنحه من تفسيرات وتأويلات لفلسفة الوجود؛ فإنَّ الثنائيات الاختيارية تمثِّل التنزيل العملي والسلوكي على مستوى الواقع في الحياة الخاصة والعامة. فالثنائيات الوجودية هي منبع قيم التوحيد والتكريم والاستخلاف والتعمير والبناء والتخلُّق والتعبُّد، وتحقيق مقاصد هذه القيم رهين بمسؤولية الإنسان الاختيارية، ولا يعني هذا أنَّ الاختيار سيكون حتماً ودائماً إلى زمرة الأطراف الأُولى من هذه الثنائيات (أي: الإيمان، والخير، والتزكية، والصلاح...)، وإنما المقصود -وَفق الرؤية

الاستخلافية- السعي في طلبها، وبذل قصارى الجهد لتحصيلها، والظفر بخيراتها وبركاتها؛ لأنَّها أصل المنافع والمصالح، بينما تُعَدُّ أطراف الزمرة الثانية (الكفر، والضلال، والتدسية، والفساد...) أصل الشرور والمفاسد، وسبب الهدم والخراب، لذلك كانت السلامة في تجنُّبها، وبذل الوسع لتقليلها وتقنينها، والحذر من طرقها ومسالكها.

وأهم ميزة لهذا النوع من الثنائيات أنَّه ليس فيها خلوص بيِّن، أو احتماء كامل بأطراف دون أُخرى، وإنما يحكمها منهج التغليب والرجحان، وأخطر ما يتهدَّدها هو رجحان كِفَّة الزمرة الثانية (مرادفات الكفر، والشر، والفساد...)، وغلبتها، وانتشارها؛ لأنَّها مسبِّبات نزول الهلاك والدمار على الجميع،[٥٧] وقد كانت مهمة الرسل والأنبياء على مرِّ التاريخ التنبيه على هذا الخطر، وقيادة البشرية إلى شاطئ النجاة؛ لتتحصَّل معاني التنافس والعمل والمبادرة والتدافع والإصلاح، وهذا مناط التكليف والاستخلاف، وهو مجال تتفاوت فيه الدرجات والمراتب بين الأفراد والجماعات في الدنيا والآخرة.

[٥٧] يقول تعالى: ﴿ وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦ ﴾ (الإسراء: ١٦)، وقال ﷺ مجيباً عائشة رضي الله عنها: "أنهلك وفينا الصالحون"، قال: "نعم إذا كثر الخبث". انظر: - مسلم، مسلم بن الحجاج النيسابوري. **صحيح مسلم**، تحقيق: نظر بن محمد الفاريابي أبو قتيبة، الرياض: دار طيبة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، مج٢، ص١٣١٧، حديث رقم٢٨٨٠